

## أساليب الخطاب الإقناعي عند الأمير عبد القادر من خلال كتابه "المقراض الحاد"

يوسف ولد النبية<sup>(1)</sup>

### مقدّمة

يُعدّ كتاب "المقراض الحاد" لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" أول مؤلفات الأمير عبد القادر (ت 1300هـ/1883م) النثرية، الذي ألّفه بعد نفيه من الجزائر إلى سجن أمبواز (Amboise) بفرنسا سنة 1264هـ/1947م<sup>1</sup>.

وقد أفصح الأمير عن سبب تأليف الكتاب قائلا: "وبعد؛ فإنّي في أيّام ضيافتنا عند... الدولة الفرنسية تكلم بعض القسيسين في دين الإسلام وقال: إنّ الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه. فلمّا سمع كلامه بعض أعيانهم ممّن له ميل إلى إظهار الحق بالعموم وفي هذا بالخصوص طلب مني أن أضع رسالة تتضمن بيان شرع الإسلام بما يكذب قول القائل، فاعتذرت إليه. ولمّا طالبت ضيافتنا بسبب اشتغال الدولة عن إرسالنا إلى محل قصدنا أعاد عليّ الطلب... فأسعفتُ الطالب المذكور معترفا، وأجبتّه بأنّي لا أصلح أن أكون تلميذا لعلماء الإسلام فضلا على أن أكون من جملتهم" (الأمير عبد القادر، 1989). ثم انتهى الأمر بالأمير إلى تأليف هذه الرسالة بعد إلحاح ذلك الطالب.

وتتألف هذه الرسالة من مقدمة وثلاثة أبواب. أما المقدمة ففي الكلام على العقل وما يتعلق به. وأما الباب الأول فتحدّث فيه عن إثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة الله

<sup>(1)</sup> Université Mustapha Stambouli, Faculté des Lettres et des Langues, Département de Langue et Littérature Françaises, 29000, Mascara, Algérie.

<sup>1</sup> ذكر هذا الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، (1964م). تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. (ممدوح حقّي، تحقّق). (ط. 2). بيروت: دار البيقظة العربيّة، نقلا عن كتاب فؤاد صالح السيد، (1985). الأمير عبد القادر الجزائري، متصوفا وشاعرا. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص. 95.

تعالى. وأما الباب الثاني فتناول فيه النبوة والرسالة. وأما الباب الثالث فهو موضوع الرسالة، وفيه بيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه. ومما يُلاحظ في هذه المنهجية أنّ الأمير لم يطرق موضوع الرسالة مباشرة، وإنما أرجأه إلى الباب الثالث. ولعل ذلك راجع إلى تهيئة الأمير عقل القارئ غير المسلم لتقبّل حقائق الإسلام، وإنكار أباطيل خصومه، فإذا ما وصل هذا القارئ إلى موضوع الرسالة انشرح صدره لما سيقوله الأمير.

ويبدو من هذا الصنيع أنّ الأمير قد سلك في هذا الكتاب مسلكا إقناعيا غايته تصحيح فهم الآخر غير الملمّي، وجعله يتخذ موقفا إيجابيا مما شرعه الإسلام في مسألة "وجوب الوفاء والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه". وقد اعتمد الأمير في خطابه الإقناعي على أساليب مختلفة؛ عقلية، ونقلية، وحسية، ولغوية بلاغية. وستكون هذه الأساليب عناصر هذه الورقة البحثية.

### الخطاب الإقناعي : المصطلح والمفهوم

لقي الخطاب الإقناعي عناية المفكرين والباحثين قديما وحديثا، كالفلاسفة واللغويين، والبلاغيين، وقد ربطوه أكثر بفنّ الخطابة؛ فقد ذهب أرسطو إلى أن الإقناع والافتناع يحدثان بثلاث وسائل؛ أولها أنّ الخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يُلقى على نحو يجعله خليقا بالثقة، لأننا نستشعر الثقة على درجة أكبر وباستعداد أوسع بأشخاص معتبرين في كل الأمور بوجه عام. ثم إنّ الافتناع يمكن أن يتم بواسطة السامعين إذا كانت الخطبة مثيرة لمشاعرهم، فأحكامنا حين نكون مسرورين ودودين ليست هي أحكامنا حين نكون مغمومين ومعادين.. وأخيرا فإنّ الإقناع يحدث عن الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة أو شبه حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة (أرسطو، 1979).

وقد تناول البلاغيون العرب الخطاب الإقناعي في ضوء القاعدة البلاغية الشهيرة "مراعاة الكلام لمقتضى الحال"؛ أي مراعاة المتكلم لأحوال السامعين... ويرتبط الافتناع (Persuasion) بالحجاج (argumentation) ارتباطا لا يكاد يقبل انفصالا؛ و"حدّ الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية، وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي،

لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة" (عبد الرحمن طه، 2000).

وقد ذهبت النظريات الحجاجية الكلاسيكية إلى أنّ الحجاج ينتهي إلى البلاغة؛ سواء الكلاسيكية منها (أرسطو، وجهود العرب أيضا) أو الحديثة (برلمان، أولبريخت تيتيكا، ميشال ميير)، كما أنه ينتهي إلى المنطق الطبيعي (جان بليز غريز).

على أنّ اللغوي الفرنسي "أزفالد ديكرود O. Ducrot" خالف - ابتداء من سنة 1973م - تلك النظريات، وذهب إلى أن الحجاج يكمن في اللغة ذاتها، "وتنطلق هذه النظرية من الفكرة الشائعة التي مؤداها (أننا نتكلم عامة بقصد التأثير)" (العزاوي أبو بكر، 2006)، ومن هذا المنظور يعرف الحجاج على أنه تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. ومثال ذلك جملة "أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة"، التي تتكون من حجة (التعب) ونتيجة (الراحة) (العزاوي أبو بكر، 2006).

على أنّ قراءتنا لأساليب<sup>2</sup> الخطاب الإقناعي عند الأمير عبد القادر ستكون من المنظور الكلاسيكي، الذي يقوم على الوسائل البرهانية (عقلية، نقلية، حسية) والوسائل اللغوية والبلاغية، نظرا لما لها من حضور معتبر في الكتاب الذي بين أيدينا.

## الأساليب العقلية

تتجلى الأساليب العقلية عند الأمير عبد القادر في رد الأقيسة الفاسدة وتوجيهها توجيها تدعمه أمثلة من الواقع، من ذلك قوله عما اصطاح عليه بـ "فساد مقاييس الغرور": "فالذين غرّتهم الدنيا واشتغلوا بها قالوا: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فإذا الدنيا خير فلا بد من إثارها، وقالوا: اليقين خير من الشك، وإذا الدنيا يقين، والآخرة شك فلا نترك اليقين، وهذه أقيسة فاسدة، وبيان فسادها بالبرهان". وقد رد الأمير على القياس الأول: "إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار فهو خير، وإن كان أقل منه فالنسيئة خير، فإنّ هذا المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول النقد

<sup>2</sup> يطلق الأسلوب في اللغة على الطريق والوجه والمذهب والفرق... أما في الاصطلاح العام فهو طريقة التفكير والتصوير والتعبير... أما في الاصطلاح النقدي فهو طريقة الكتابة، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير. أنظر: الشايب أحمد، (1996م). الأسلوب. (ط. 6). القاهرة: مكتبة النهضة، ص. 44، وما بعدها.

خير من النسيئة... والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقدا لأجل الراحة والريح النسيئة" (الأمير عبد القادر، 1989). وردّ على القياس الثاني بقوله: هذا القياس أكثر فسادا من الأول: لأن اليقين إنما يكون خيرا من الشك إذا كان مثله؛ فالمرضى يشرب الدواء البشع الكريه، وهو من الشفاء على شك، ومن مرارة الدواء على يقين (الأمير عبد القادر، 1989).

وقد فتّد الأمير زعم بعض النصارى القائل بأن المسلمين لا يعتقدون تأثير الأسباب في الأشياء، قال: "بلغني أن بعض النصارى قال: المسلمون لا يعتبرون الأسباب، نعم لا نعتبر تأثيرها بطبعها ولا بقوتها مجردة، وأما اعتبارها على وجه آخر فهي معتبرة. قال إمام الحرمين: إن نسبة الأثر إلى المؤثر القريب لا تنافي كون ذلك الأثر منسوب إلى مؤثر آخر بعيد ثم إلى أبعد إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب وفاعل الكل، بمعنى أنه تعالى هو الذي وضع الأسباب المؤدية إلى دخول هذه الأفعال في الوجود" (الأمير عبد القادر، 1989)، وقد كان الأمير يسلك في خطابه الإقناعي أحيانا مسلك القياس الأصولي في إثبات الحكم، مما يدل على فقه الرجل في التعامل مع النصوص الشرعية، من ذلك ما أورده عن النبي "دعوا الحبشة ما ودعوكم، رواه أبو داود عن ابن عمر، قال شراح الحديث: وذلك أن الحبشة ضعيفة لا يخشى منها ضرر على الإسلام، فأمر عليه السلام بالكف عن قتالهم للأمن من شرهم، به قال الخطابي: والجمع بين هذا وبين قوله تعالى: (قاتلوا المشركين كافة) إذ الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيد ويجعل الحديث مخصصا لعموم الآية" (الأمير عبد القادر، 1989).

### الأساليب النقلية

سارت الأساليب النقلية عند الأمير مع الأساليب العقلية على منهج مطرد لا عوج فيه؛ حيث لم نجد تعارضا بين العقل والنقل في خطابه الإقناعي. وقد تنوعت صنوف النقل في خطاب الأمير بين القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربي، والتاريخ، وكلام العلماء والحكماء، ونصوص من الكتاب المقدس.

أ- القرآن الكريم: لقد ساق الأمير آيات قرآنية لبيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء بالعهد والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه، منها قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)، ومما قاله في هذا الشأن: "معنى الآية: الأمر بالوفاء وهو القيام بمقتضى العهد، والعقود هي العهود الموثقة، أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء فيما يعقدون"

(الأمير عبد القادر، 1989). ومنها قوله تعالى : (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا)، ومنها قوله تعالى في ذم الذين ينقضون العهود : (إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) قال : "معنى الآية ذم من لا يفي بالعهد. وقوله (وهم لا يتقون) أي لا يخافون سبّة الغدر، ويبالون بما فيه من العار والنار" (الأمير عبد القادر، 1989). ومنها قوله تعالى : (وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحبّ الخائنين)، "قال المفسرون : معنى الآية أمر الله نبيه إذا عاهد قوما من العدو، وظهّرت من العدو علامة نقض العهد، أن يطرح لهم العهد ويخبرهم إخبارا مكشوفاً أنه نقض العهد الذي بينه وبينهم، ولا يعاجلهم بالحرب وهم على توهم بقاء العهد، حتى يعلمهم ويأخذوا حذرهم ويستعدوا، ومن لم يفعل هذا يكون خائناً في العهد، والله لا يحب الخائنين في العهود (الأمير عبد القادر، 1989).

كما ساق الأمير شواهد قرآنية تأمر بالعدل مع المخالفين، منها قوله تعالى : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوٓا۟ ۖ اَعْدِلُوٓا۟ هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى)<sup>3</sup> قال البيضاوي : "المعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للكفار على ترك العدل فيهم، فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلته، وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد، اعدلوا هو أقرب للتقوى، صرح لهم الأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبين أنه مقتضى الهوى" (الأمير عبد القادر، 1989، ص. 205)<sup>4</sup>.

ب - الأحاديث الشريفة : أورد الأمير في خطابه الإقناعي أحاديث شريفة منها ما هو نبوي ومنها ما هو قدسي، من ذلك قوله عليه السلام في الحديث القدسي حاكيا عن ربه : "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته ؛ رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره". رواه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة. قال بعض شراح الحديث : إنما خصّ هؤلاء الثلاثة مع أنه تعالى خصم كل ظالم إشارة للتغليظ عليهم، وإعلاما بعظيم قبيح فعلهم، وإن هذه الخصال كبائر جرائم وخطايا عظام، ومعنى خصمته غلبته، لأن الله تعالى لا يغلبه أحد. ومعنى أعطي : أعطي الأمان باسعي أو بذكري أو بما شرعته من الدين، كأن يقول عليك عهد الله أو ذمته،

<sup>3</sup> سورة المائدة، الآية 8.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، 205.

ومعنى غدر : نقض العهد الذي عاهده عليه لأنه جعل الله كفيلا له فيما لزمه من وفاء ما أعطي، والكفيل خصم المكفول به للمكفول عنه"<sup>5</sup>.

ومن ذلك قوله عليه السلام في الحديث النبوي : "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم: ملك كذاب، وشيخ زان، وعائل مستكبر". رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة. قال القونوي : سِرُّ عدِّ الملك الكذاب منهم أنّ الكذب صنفان ذاتي وصفاتي، فالصفات محصور في موجبين الرغبة والرغبة، والملك لا يخاف أحدا فيصانعه ولا يحتاج إلى أحد، فإذا كان الملك كذابا فلا موجب له إلا لؤم الطبع، فهو وصف ذاتي له والأوصاف الذاتية تستلزم نتائج تناسيها"<sup>6</sup>.

ومن ذلك قوله عليه السلام في الحديث النبوي : "ثلاث ليس لأحد فيهن رخصة : برّ الوالدين مسلمين كانا أو كافرين، وأداء الأمانة لمسلم كان أو كافر، والوفاء بالعهد لمسلم كان أو كافر. رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب"<sup>7</sup>.

ج - أحكام الفقه : كان الأمير يستدل بأحكام الفقه الإسلامي في إثبات بعض المسائل المتعلقة بموضوع الرسالة : منها أنّ الإسلام ليس دين عنف أو قتال من أجل القتال، وإنما يكون القتال لدفع الضرر عن الإسلام، أما إذا انتفى الضرر فلا قتال. ف"لو كان القتال لغير دفع الضرر وكان لأجل المخالفة في الدين، لكانت الجزية لا تقبل من الحربي إذا طاع بها مع بقائه على دينه، مع أنه إذا طاع بها على شروطها يحرم قتاله ولا تجوز إذايته من غير خلاف بين المسلمين"<sup>8</sup>، ومنها أن القتال لم يكن لأجل الدخول في الدين، فلو كان القتال لأجل الدخول في الدين لكانت المرأة تُقتل مع أنها لا تقتل وتترك على دينها، قال شراح خليل كالشيخ إبراهيم : لأن الأصل عدم إتلاف النفوس، وإنما أبيض من القتال ما يمنع المفسدة. ومن لا يقاتل عادة لا يقتل لعدم ضرره الآن. وكذلك الصبيان المطيعون للقتال والزماء والضعفاء والفلاحون وأهل الصنائع والقسيسون والرهبان، ويعطى لهم ما يكفهم في عيشهم ولباسهم من أموال المحاربين. فإن لم تكن فيجب على المسلمين أن يعطوهم ما يكفهم"<sup>9</sup>.

<sup>5</sup> نفسه، صص. 205، 206.

<sup>6</sup> نفسه، ص. 206.

<sup>7</sup> نفسه، ص. 207.

<sup>8</sup> نفسه، ص. 199.

<sup>9</sup> المرجع نفسه، صص. 199، 200.

ويضيف الأمير:

"فتبين من هذه الأمور التي ذكرناها والنصوص التي جلبناها أنه ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود به دفع ضرر الأمم المخالفة ورفع كلمة الإسلام بالقتال أو بغيره، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ولا دفع ما وجب القتال، لأن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما."<sup>10</sup>

وقد ذكر الأمير أيضا أحكاما فقهية في الوفاء بالعهد مع غير المسلمين في حال السلم والحرب، "منها أن المسلم الأسير عند العدو إذا أمّنه على نفسه يحرم عليه الهروب. قال الشيخ خليل: وحرم خيانة أسير ائتمن طائعا ولو على نفسه... قال اللّخمي: لئلا يقول العدو: المسلمون لا يوفون بالعهد"<sup>11</sup>. ومنها أنه إذا كان مسلما خارجا عن طاعة الإمام وأمّن حربيا لأجل أن يعينه على قتال الإمام ثم إن الإمام غلب المسلم الخارج عن طاعته، يلزم الإمام الوفاء بإيمان المسلم الخارج عن طاعته ولا يتعرض للعدو الكافر بشيء"<sup>12</sup>.

د - نصوص من الكتاب المقدس: لم يكتف الأمير بالإقناع بالنقول الإسلامية، وإنما عضدها ببعض ما ورد في الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل في سياق إثبات نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بخاصة، لأنّ الأمير في موقف خطابي مع الآخر غير الملمّي، ومن بلاغة الإقناع وتمامه الاستدلال بما يعتقده ذلك الآخر. ففي التوراة "أنّ الله تعالى قال لموسى: وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء أمرهم به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسعي فأنا أكون المنتقم من ذلك. (انتهى النص) ودلالة هذا على رسالة محمد ظاهرة، فإن أولاد إسماعيل إخوة بني إسحاق، وقد انتقم الله من اليهود الذين لم يسمعوا كلامه كبني قريظة، والنضير، وبني قينقاع وغيرهم"<sup>13</sup>.

وفي إنجيل يوحنا قوله: وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عند نفسه، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بما سيأتي. وكذلك في القرآن وصف محمدا بقوله: (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى)<sup>14</sup>.

<sup>10</sup> المرجع نفسه، ص. 200.

<sup>11</sup> المرجع نفسه، صص. 223، 224.

<sup>12</sup> المرجع نفسه، ص. 225.

<sup>13</sup> المرجع نفسه، ص. 177.

<sup>14</sup> المرجع نفسه، ص. 180.

هـ - كلام العرب : لم يغفل الأمير الاستشهاد بكلام العرب في الوفاء بالعهد، من أمثال وحكم وشعر، من ذلك قولهم : "أربعة من علامات اللؤم : استعمال الغدر، وإفشاء السرّ، وإساءة الجوار، وتجنب الأخبار. وقال بعضهم : من النفاق غش الصديق، ونقض العهود والمواثيق"<sup>15</sup>. وقولهم أيضا :

لا تقوّلنّ إذا ما لم تُرد أن تُتيمّ الوعدَ في شيء نعم  
فإذا قلتَ نعم فاصبِرْ لها بوفاء العهد إن الخلف ذمٌّ<sup>16</sup>

ولعلّ مردّ تخصيص الأمير حيزا كبيرا للحديث عن شيم الوفاء بالعهد، وصدق الوعد، وأخلاقيات الحرب، وحسن معاملة الأسرى، وكلمة الشرف، إلى كونه رجلا مجاهدا مقاتلا ذاق مرارة الأسر وذله، والخيانة والغدر، فلا ينبئك في مثل هذا إلا خبير تجرّع مرارة الظلم وألم الوحشة والغربة، ولكنه شهيم عفو سمح كريم، لأنّ دينه يدعو إلى دفع السيئة بالحسنة أسوة بجده عليه الصلاة والسلام (عبد الرزاق بن السبع، 2000م). فليس عجبا أن تشغل تلك الخصال عقول محبيه من المسلمين وغير المسلمين على سواء<sup>17</sup>.

### الأساليب الحسيّة

كان للأساليب الحسية -المدرّكة بالحواس- حظ في خطاب الأمير، لاسيما في الباب الأول الذي تحدّث فيه عن إثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة الله تعالى، وقد تناول فيه الأرض وعجائب الخلق ؛ فتحدّث عن الأنهار والبحار والجبال، والحيوان والنبات. ثم انتقل إلى الحديث عن آيات الله في السماء ؛ فذكر الأفلاك والشمس والقمر ومنافعهما. ثم أنهى هذا الباب بحديثه عن التفكير في خلق الإنسان ؛ فذكر أطوار خلقه ونفخ الروح فيه، وتحدّث عن الحواس الخمس الظاهرة والباطنة ... ومن أمثلة ذلك قوله : "وأنه تعالى جعل البحر المحيط بالأرض مالح الطعم مرّا، وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهوى، إذ لو كان حلوا لأنّتن الجو وفسد الهوى بسبب ما يموت فيه من الحيوانات. فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم، وكف تعالى شره أن يطغى على العباد، وسخّر لهم، يحمل مراكزهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم العالية بالتجارات وغيرها" (الأمير عبد القادر، 1989م).

<sup>15</sup> المرجع نفسه، ص. 245.

<sup>16</sup> المرجع نفسه، ص. 253.

<sup>17</sup> ينظر مثلا ما كتبه عنه معاصره : شارل هنري تشرشل، (1974م)، حياة الأمير عبد القادر. (أبو القاسم سعد الله، ت.). تونس : الدار التونسية للنشر.



## الأساليب اللغوية والبلاغية

يعتمد الخطاب الإقناعي، فيما يعتمد عليه، على وسائل فنية بلاغية الغرض منها التأثير في المتلقي، كالتشبيه والقصر والتقسيم والمقابلة، فمن أمثلة التشبيه قوله:

"نور العقل يشبه نور النار من وجهين وهما عيب فيه، أحدهما: أن نور النار ممزوج بدخان يسود الثوب ويجفف الدماغ، فكذلك نور العقل ممزوج بدخان الشبهات. والثاني: أن نور السراج ينطفئ بأدنى ريح، فكذلك نور العقل ينطفئ بأدنى شبهة، وهنا يحصل التفاضل والتفاوت بين العقول." (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 18)

ومن أمثلة التقسيم -الذي هو استيفاء أقسام الشيء- قوله: "وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف: الأولى الفلاحون والرعاة والمحترفون، الثانية الجندية الحماة لهم بالسيوف، الثالثة المترددة بين الطائفتين في الأخذ والعطاء، وهم العمال والجباة وأمثالهم" (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 29). وقد كان لأسلوب القصر بطرقه المختلفة دور في تخصيص المعنى عند الأمير، فبطريقة "لا النافية وإلا" يخصص أهل العلم عن غيرهم من الناس: "فهذه أمور سياسية لا بد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من التمييز والعلم والهداية" (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 28). وبطريقة "إنما" يبين ترتيب القياس الذي نظمته المغتربون بحب الله، حينما قاسوا المستقبل على الماضي؛ أي ما دام الله أحسن إليهم في الدنيا فيترتب عليه أن يحسن إليهم في الآخرة! قال: "وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب" (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 38)، كما كان للمقابلة دور في تبيان الشيء وضده، كما في المقابلة بين مرض النفوس وصحتها: "وإن نقص النفوس الناطقة ومرضها شيئان: الإعراض عن الحق والإقبال على الخلق، وصحتها شيئان: الإقبال على الحق والإعراض عن الخلق" (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 162)، وقد كان الأمير في خطابه الإقناعي يُشرك المتلقي في النقاش بقوله:

"اعلم أن..."، "إذا عرفتَ هذا فنقول..."، "فإن قيل إنكم قلتُم... قلنا...". وهذه طريقة معروفة عند كتابنا العرب القدماء الذين كانوا يفترضون وجود متلقٍ ابتداءً.

## خاتمة

لقد تبين مما تقدّم، أنّ الأمير عبد القادر صاغ خطابه الإقناعي وفق أساليب مختلفة؛ عقلية، ونقلية، وحسية، ولغوية، وبلاغية، بما يدل على عمق معرفي، ووعي في الكتابة لدى

الأمير، وتزداد أهمية هذا العمق المعرفي وهذا الوعي في الكتابة، حينما يتعلق الأمر بإقناع الآخر غير الملي، وجعله يتخذ موقفا إيجابيا مما شرعه الإسلام في مسألة "الوفاء بالعهد والنهي عن الغدر"، وكل المسائل الشرعية الأخرى التي يأخذ عنها غير المسلمين صورا مغلوطة؛ إما لقصورهم في الفهم، أو لأنهم أخذوا تلك المسائل من غير مصدرها الصحيح. فلا ضير -عندئذ- أن تكون كتابة الأمير على هذا النحو نبراسا للداعية الواعي الذي يريد أن يوصل خطابه إلى أبعد حدّ في المعمورة.

### بيبليوغرافيا

- أرسطو (1979م). الخطابية. الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق، بدوي عبد الرحمن، بيروت: وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم.
- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري (1989م). المقرض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد. (ط. 1). الجزائر: الطاسيلي للنشر والتوزيع، صص. (7-35-6-44-198-199-201-202-18-54-29-28-38-162).
- شارل هنري، تشرشل (1974). حياة الأمير عبد القادر، (أبو القاسم سعد الله، ت.). تونس: الدار التونسية للنشر.
- الشايب، أحمد (1966م). الأسلوب. (ط. 6). القاهرة مكتبة النهضة: القاهرة.
- طه، عبد الرحمن (2000م). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. (ط. 2). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ص. 65.
- عبد الرزاق، بن السبع (2000م). الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه. مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ص. 211.
- العزاوي، أبو بكر (1426هـ/ 2006م). اللّغة والحجاج. (ط. 1). الدار البيضاء: العمدة في الطبع. صص. 8، 16 وما بعدها.
- فؤاد صالح، السيد (1985). الأمير عبد القادر الجزائري، متصوفا وشاعرا. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.